توليد المعاني عند النقاد العرب القدماء

د. حسين علي الزعبي*

الملخص

تناول هذا البحث فكرة توليد المعاني عند النقاد العرب القدماء، ويقصد بها، أن يستخرج الشاعر معنى جديدًا من معنى سابق، من صفاته أنه غير مبتكر ولا مسروق. عالج البحث هذه الفكرة بتمهيد، ذكر فيه أنواع المعاني، ثم بالإشارة إلى نشوء المصطلح في فضاء المثاقفة الشعرية، ومن ثم بتعريف توليد المعاني، ولَمْح محنة الشعراء المحدثين في قلة المعاني، ثم كان صفوة البحث، إذ استكشف آليات توليد المعاني عند النقاد القدماء، سواء أذكر الناقد المصطلح أم لم يذكره، خلال مسار زمني متسلسل من **ابن أبي عون (322هـ)** إلى **ابن رشيق القيرواني (456هـ)** إذ استقر المصطلح ـ عنده ـ بدلالته على آلياته، وانتهى إلى الوقوف على أهم الرؤى النقدية التي ذهب إليها القدماء في معالجة توليد المعاني، ولاسيَّما آلياته.

*جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Generating Meanings in Ancient Arab Critics' Writings

Dr. Hussein Ali Al-Zuobi[**]

Summary

This research deals with the idea of generating meanings by ancient Arab critics and it means, that the poet extracts a new meaning from a previous meaning. One of its qualities is that it is not innovative and not plagiarized. The research deals with this idea by referring to the types of meanings, and by indicating the emergence of the term in the space of poetic culture. The study also defines the concept of generating of meanings and points to the plight of the modern poets who face this scarcity of meanings. The focus of the research is exploring the mechanisms of generating meanings by ancient critics, whether they mentioned the term or not, covering critics from Ibn Abi Aon (died 322 H) to Ibn Rasheq Al-Qeirwani (died 456 H). The use of the term "generating meaning" involved its mechanisms and the most important critical visions proposed by ancient critics in dealing with this issue.

[**] Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

ردّ النقاد العرب القدماء الشعر إلى أربعة عناصر، هي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية[1]، وولّد اهتمامهم بنقد المعنى قضايا نقدية عدَّة، منها تعدّد وجوه المعاني، إذ فصلوا بين أنواعها والمعاني ـ عندهم ـ مشتركة، ومقلدة، ومتداولة، ومسروقة، ومبتدعة، ومخترعة مبتكرة، ومولّدة.

ونشأ النوع المولّد من المعاني في فضاء معالجة النقاد لقضية السرقات الشعرية، ولاسيَّما أنّ النقاد القدماء والمحدثين في الشرق والغرب يجمعون على حتمية المثاقفة الشعرية التي لا مناص منها، واستثنى النقاد العرب القدماء بعض المعاني المبتكرة التي لم يستطع أحد من الشعراء أن يولّد منها معنى آخر.

وقد أشار المتنبي إلى هذه المثاقفة، قال: "فمن هذا الذي تعرى من الاتباع، وتفرد بالاختراع والابتداع، لا أعلم شاعرًا جاهليًا ولا إسلاميًا إلا وقد احتذى، واقتفى، واجتذب واجتلب"[2].

ورأى ابن رشيق أنّ "باب السرقات متسع جدًا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه"[3]، وهو عند الآمدي باب "ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر"[4] من الشعراء.

مثل هذه الإشارات النقدية ـ وهي كثيرة جدًا في الموروث النقدي ـ تتناغم قربًا مع ما طرحته جوليا كريستيفيا، عندما قالت: "كلّ نص هو تشرب وتحويل لنص آخر"[5].

وباب المثاقفة باب واسع جدًا، ومنه ما أطلق عليه النقاد القدماء اسم التوليد، وهو يعني "أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد زيادة، فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع؛ لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضًا سرقة إذا كان ليس آخذًا على وجهه"[6].

---

[1]– انظر: نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت)، ص: 63.

[2]– الرسالة الموضحة: أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، 1385هـ /1965م، ص: 143.

[3]– العمدة: ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، جـ2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1972، ص: 280.

[4]– الموازنة بين أبي تمام والبحتري: الحسن بن بشر الآمدي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 273.

[5]– أدونيس منتحلًا: جهاد كاظم، مكتبة مدبولي، مصر، 1993، ص: 34.

[6]– العمدة: جـ1، ص: 62.

وبذلك يفضي التوليد إلى خلق معنى جديد من معنى سابق، ليس من صفاته السرقة أو الاختراع. وإنما يقترب من الابتكار والإبداع، وهذا ما أشار إليه علي بن عبد العزيز الجرجاني، إذ قال: فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور: (النقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب والزيادة والتأكيد...) ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله.[1]

وقد أكّد غير واحد من النقاد أنّ من أسباب التوليد قلة المعاني، قال ابن طباطبا: "والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم لأنّهم قد سبقوا إلى كلّ معنى بديع..."[2]

ويؤكد علي بن عبد العزيز الجرجاني محنة الشعراء المحدثين، إذ قال: "لأنّ من تقدّمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها، وأتى على معظمها، وإنَّما يحصل على بقايا: إمَّا أن تكون نزعت رغبة عنها، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها، واعتياص مرامها، وتعذر الوصول إليها"[3].

وقد ذهب د. جابر عصفور إلى ما ذهب إليه ابن طباطبا والجرجاني، قال: لا مفر من أن يسلك الشاعر أحد طريقين: إمَّا التكرار الساذج...، وإمَّا التوليد الذي يخرجه من مأزق التكرار إلى آفاق فيما يسمى بحسن الاتباع.[4]

وهذا لا يعني أن النقاد القدماء كلّهم قد ذهبوا إلى هذه الرؤية النقدية، فباب اختراع المعاني مفتوح في كل مكان وزمان، وهذا ما أشار إليه بعض النقاد القدماء، قال ابن رشيق القيرواني: "وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا الحاضر".[5] وكرر ابن الأثير الفكرة نفسها، قال: ـيقصد الابتكارـ "والصحيح أنّ بابي الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة".[6]

---

[1]- الوساطة بين المتنبي وخصومه: تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، صيدا، بيروت، 1386هـ /1966م، ص: 214.

[2]- عيار الشعر: ابن طباطبا، تح: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص: 46.

[3]- الوساطة بين المتنبي وخصومه: ص: 214.

[4]- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992م، ص:91-92.

[5]- العمدة: جـ1، ص: 263.

[6]- المثل السائر: ضياء الدين بن الأثير، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، جـ2، مصر، ص: 363.

هذا التناقض في الفكر النقدي في قضية المعاني؛ استغراقها، أو ابتكارها، لا ينفي استعارة الشعراء لمعانٍ سابقة، ومتابعة النقاد القدماء لهذه الاستعارات؛ ممَّا أفضى إلى وجود مصطلح توليد المعاني، وتحديد آلياته.

وأشار بعضهم إلى المصطلح، وذكر بعضهم آلياته دون ذكره، حتى استقر المصطلح وآلياته عند ابن رشيق القيرواني.

ومن الذين أشاروا إلى المصطلح **ابن أبي عون (322هـ)**، إذ قال: "والمتقدمون وإن كانوا افتتحوا القول، وفتحوا للمحدثين الباب، ونهجوا لهم الطريق؛ فكان لهم فضل السبق واستئناف المعاني، وصعوبة الابتداء، فإنّ هؤلاء قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه، وولّدوا المعاني، وزادوا على ما نقلوا وأغربوا في ما أبدعوا".[1]

أمّا **ابن طباطبا (322هـ)** فذكر آليات التوليد ولم يذكر المصطلح، وعدّ من يلتزم من الشعراء بهذه الآليات، كأنّه أتى بمعانٍ متفردة غير مسبوق إليها، قال: "إذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يُعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه".[2] ثم ذكر آليات التوليد، فمن أراد أن يسلك هذا السبيل، فإنه محتاج "إلى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها، كأنه غير مسبوق إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإذا وجد معنىً لطيفًا في تشبيب أو غزل استعمله في المديح، وإن وجد في المديح استعمله في الهجاء، وإن وجده في وصف ناقة أو فرس استعمله في وصف الإنسان، وإن وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة، فإنّ عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من أحسن عكسها، واستعمالها في الأبواب التي يحتاج إليها فيها. وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله، وجعله شعرًا كان أخفى وأحسن. ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه، وكالصباغ الذي يصبغ الثوب على ما رأى من الأصباغ الحسنة".[3]

---

[1]– كتاب التشبيهات: ابن أبي عون، عني بتصحيحه: محمد عبد المعين خان، مطبعة جامعة كمبرج، 1369هـ/1950م، ص: 74.

[2]– عيار الشعر: ص: 112.

[3]– المصدر نفسه: ص: 113–114.

يقوم فهم ابن طباطبا –في توليد المعاني– على نقل المعنى من غرض إلى غرض آخر، وتحويل المعنى اللطيف في المنثور إلى شعر، وإبراز المعنى المنقول عن الشعر في صياغة جديدة أحسن من الصياغة القديمة.

أمّا **الصولي (335 أو 336هـ)** فقسّم معانيَ شعر المحدثين إلى قسمين؛ قال: "وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها، ومعاني أومأوا إليها، فأتى بها هؤلاء –المحدثون– وأحسنوا فيها[1].

ثمّ خصّ أبا تمام بالإحسان في توليد المعاني "فمتى أخذ معنى زاد عليه، ووشّحه ببديعه، وتمم معناه، فكان أحقّ به، وكذلك الحكم في الأخذ عند العلماء بالشعر كقول أوس بن حجر:

أقــولُ بمــا صــبّت علــيّ غمــامتي وَجُهْـدِيَ فــي حبـلِ العشـيرةِ أَحطِـب

فقال أبو تمام:

فَلو كـانَ يفنـى الشـعر أفنثْـهُ مـا قَـرتْ حياضُـكَ منـهُ فـي العُصُـورِ الـذَّواهبِ

ولكنّــه صــوبُ العقــولِ إذا انثنَــتْ ســحائبُ منهــا أُعقِبَــتْ بســحائبِ[2]

وقد أقام موازنة بين أبي تمام وابن أبي عيينة، وفضل أبا تمام لأسباب عدَّة،؛ منها استنباط المعاني "توليدها"، قال: لأنّ ابن أبي عيينة... يتكلم بطبعه ولا يكدّ فكره، ويخرج ألفاظه مخرج نفسه، وأبو تمام يتعب نفسه ويكدّ طبعه، ويطيل فكره، ويعمل المعاني ويستنبطها"[3]. وهو يرى أن قولي أبي تمام والبحتري مولّدان من قول زهير بن أبي سلمى.

"قال أبو تمام:

ونغمــــةُ مُعتَفِــــي جَــــدواهُ أحلَــــى علــــى أذنيْــــهِ مــــن نَغَــــم السّــــماعِ

وقال البحتري:

نشــــوانُ يطــــربُ للســــؤالِ كأنّمــــا غنّــــاهُ مالــــكُ طــــيءٍ أو معبــــدُ

---

[1]– أخبار أبي تمام: أبو بكر الصولي، تح: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري، بيروت، ص: 17.

[2]– المصدر نفسه: ص: 53–54.

[3]– المصدر نفسه: ص: 118.

وأوّل من أتى بفرح المسؤول، وطلاقة وجهه، ثم أخذه الناس فولّدوه فقالوا: السؤال أحلى عنده من الغناء وراجيه أحبّ إليه من معطيه، زهير، قال:

تـــراه إذا مـــا جئتَـــه مـــتهلِّلًا كأنّـك تُعطيـهِ الـذي أنـتَ سـائلُه"[1]

استحسن الصّولي توليد المعاني عند الشعراء المحدثين، ولاسيَّما توليدها عند أبي تمام، وقصد بالتوليد زيادة المعنى وإتمامه.

وقد أشار **الآمدي (371هـ)** إلى توليد أبي تمام للمعاني، وذكر ثلاثة آراء نقدية: عبّر الأول عن رأي أصحاب البحتري، إذ عدّوا التوليد خروجًا على مذهب أشعار الأولين، "وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولّدة"[2]. أمّا الرأي الثاني فكان لأصحاب أبي تمام الذين فضلّوا توليد أبي تمام للمعاني وعدّوها مزية إيجابية، إذ "ولّد أبو تمام من البدائع ما ولّد".[3] ويقترب الرأي الثالث من رأي أصحاب أبي تمام، وهم أهل النصفة الذين "لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها، والإبداع والإغراب فيها، والاستنباط لها".[4]

ويبدو أنّ الآمدي قد اتخذ من توليد المعاني معيارًا نقديًا حكم من خلاله على هذه الظاهرة البارزة في شعر أبي تمام بين معارض ومؤيد ومنصف.

وتحدث **الحاتمي (388هـ)** عن توليد المعاني، قال: "وقال الفرزدق، وذكر امرأة له ماتت بجُمْع، وهي التي تموت وولدها في جوفها:

وجفـنِ سـلاحٍ قـد رُزِئـتُ فلـم أنُـحْ عَلَيـهِ ولـم أبعَـثْ عليـهِ البَواكيَـا
وفـي ضِـمْنِهِ مـن دارِمٍ ذو حَفيظَـة لـو انّ اللّيـالي أخطأَتْـهُ لَيالِيـا

فقال أبو تمام في اثنين صغيرين كانا لعبد الله بن طاهر، فماتا في يوم واحدٍ، وأشار إلى بيتي الفرزدق إشارة عجيبة، وزاد زيادات لطيفة من قصيدة:

---

[1]– أخبار أبي تمام: ص: 81.
[2]– الموازنة: ص: 11.
[3]– المصدر نفسه: ص: 35.
[4]– المصدر نفسه: ص: 378

نَجْمـــــانِ شـــــاء اللهُ ألا يَطلُعَـــــا إلا ارتِـــدادَ الطّـــرْفِ حتـــى يـــأفُلا
إنّ الفحيعـــــةَ بالرّيـــــاضِ نواضِـــرا لأجَـــلّ منهـــا بالرّيـــاضِ ذَوابِـــلا
لـــو يُنســـبَانِ لكـــانَ هـــذا غارِبًـــا للمكرمـــاتِ وكـــانَ هـــذا كـــاهِلا
لَهْفـــي علـــى تلـــكَ الشـــواهِدِ منهُمـــا لـــو أُمهِلَـــتْ حتـــى تكـــونَ شَـــمائِلا
إنّ الهِـــــلالَ إذا رأيـــــتَ نَمـــــاءهُ أيقنْـــتَ أن ســـيكونُ بَـــدْرًا كـــاملا

فهذا ما احتذاه وولّده وسبّطه وزاد فيه".[1]

احتذى أبو تمام قول الفرزدق في الرثاء، وكان الفرزدق قد ماتت له جارية نفساء فوجد في بطنها صبيّ ميت، فرثى أبو تمام صبيين صغيرين ماتا في يوم واحد لعبد الله بن طاهر، واسترسل وزاد معاني عدَّة _عمّا أتى به الفرزدق_ إذ شبه الطفلين بالنجمين، ورأى أنّهما لو أخرا، لاشتهرا بالكرم الواسع وقوة البأس وبكريم الأخلاق والصفات الحسنة، وأكّد الفجيعة والتحسر عليهما.

ولم يكتفٍ الحاتمي بالزيادة وسيلة وحيدة من وسائل التوليد، وإنما أضاف وسائل أخرى، إذ قال: "ومن هذا الباب قول الآخر:

رأيـــتُ المـــالَ يكسِـــبُهُ رجـــالٌ مـــآفين إذا اختُبِـــروا فُسُـــولُ
فـــلا ذو المـــالِ يَكسِـــبُهُ بعقـــلٍ ولا بالمـــالِ تُكتَسَـــبُ العقـــولُ
كمـــا تُكســـى سِـــباخُ الأرضِ ريًّـــا وتُصـــرَفُ عـــن كرائِمِهـــا السّـــيولُ

فأخذ هذا المعنى أبو تمام واختصره في بيت واحد فقال، وأحسن كلّ الإحسان:

لا تُنكـري عَطَـلَ الكـريمِ مـن الغنـى فالسّـيلُ حـربٌ للمكـانِ العـالي[2]

ومن هذا الباب قول أبان اللاحقي:

ولـــنْ تَعـــرفَ الـــنّفسُ النعـــيمَ وعِـــزّهُ إذا جَهِلـــتْ حـــالَ المذلّـــةِ والضُّـــرِّ

فأخذ هذا المعنى أبو تمام وأحسن صوغه وسبكه فقال:

والحادِثـــاتُ وإنْ أصـــابَكَ بؤسُـــها فهـــوَ الـــذي أنْبـــاكَ كيـــفَ نَعيمُهـــا[3]

---

[1]- الرسالة الموضّحة: ص: 182.
[2]- الرسالة الموضحة: ص: 182- 183.
[3]- المصدر نفسه: ص: 184.

وسمع أبو تمام قول القائل: "المحابّ مقرونة بالمكاره" فقال، وبرّز تبريز السابق المتطّمر إذ تطلّمه الفرسان في حلبة تعثرت الجياد في طلبه بها:

سَـــعَى فاسْـــتنزلَ الأمـــلَ اقتِســـارًا ولـــولا السّـــعيُ لـــم تكُـــنِ المســـاعي[1]

وقال الصولي: سمعت أبا مالك يقول: من استطاع أن يأخذ المعنى فيصنع به صنيع أبي تمام، وإلا فلا يتعرض له.[2]

فقد ركّز الحاتمي على آليات التوليد؛ زيادة المعنى، واختصاره، وحسن سبكه، ونظم المنثور. كما نظر إلى توليد المعاني عند أبي تمام نظرة إيجابية، وعدّها من محاسنه.

ولم يذكر **علي بن عبد العزيز الجرجاني (392هـ)** مصطلح التوليد، وإنّما تحدّث عن آلياته تحت عنوان السرقات، وجعل استعمال الشاعر هذه الآليات تقربه من الاختراع والإبداع، إذ رأى أنّ السرقات داء قديم "ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب، وتكلّفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتقريض في حال، والتصريح في حال أخرى، والاحتجاج والتعليل؛ فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله".[3]

وشواهد كثيرة حول هذه الآليات؛ منها الزيادة والتأكيد: "ومتى سمعت قول أبي دهبل الجمحي:

وكيـــفَ أنســـاك لا أَيْـــدِيك واحـــدة عنـــدي ولا بالـــذي أَوْلَيْـــتَ مـــن قِـــدَم

علمت أنه من قول النابغة:

أبـــى غفلتـــي أنّـــي إذا مـــا ذكرتُـــه تقطَّـع حـزنٌ فـي حَشَـى الجَـوفِ دَاخِـل
وأنَّ تـــلادي إنْ نَظَـــرت وشِـــكَّتي ومُهْـرِي ومـا ضـمَّت إلـيَّ الأنامـلُ
حِبَـــاؤك والعِـــيسُ العِتَـــاقُ كأنّهـــا هِجَـان المهـا تُـرْدَى عليهـا الرّحائـل

فإذا أنصفت أبا دهبل عرفت فضله، وشهدت له بالإحسان؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل في: "ولا أيديك واحدة عندي". ثم أضاف إليه "ولا بالذي أوليت من قدم" فتم

[1]– المصدر نفسه: ص: 184.
[2]– المصدر نفسه: ص: 185.
[3]– الوساطة: ص: 214.

المعنى، وأكده أحسن تأكيد، لأن الأمور العظيمة قد تنسى إذا طال أمدها، وتقادم عهدها؛ فنفى عنه وجوه النسيان كلّها"[1]

ومن الآليات جمع المعنى، إذ أخذ أبو الجويرية بيتي الخنساء أحسن أخذ، وجمعهما في بيت استوفى فيه معنييهما.

قالت الخنساء:

وما بَلَغت كفُّ امرئٍ متناول من المجد إلّا والذي فيه أَطْولُ

وما بَلغ المهدُون نحوك مدْحَة وإنْ أطنَبوا إلّا وما فيك أفضلُ

فقال أبو الجويرية:

يزيدُ على سَرْوِ الرجال بسَرْوِه ويقصر عنه قولُ مَنْ يتمدّح[2]

القلب: وقصد به النقض، قول المتنبي:

أَأُحِبّهُ وأُحِبُّ فيه مَلَامَةً إنّ الملامَةَ فيه من أعْدائه

إنّما نقض قول أبي الشيص:

أَجِدُ الملامَةَ في هواكِ لذيذةً حبًّا لِذكْرِكِ فلْيُلُمْني اللُّوَّمُ[3]

نقل المعنى: قال الآخر:

لستُ أُضحِي مصافحًا لسلام إنني إن فعلتُ أتلفْتُ مَالِي

فنقله المتنبي إلى الزمان فصار كالمعنى المنفرد، فقال:

أعْدَى الزَّمانَ سخاؤُهُ فَسَخَا به ولقد يكونُ به الزمانُ بخيلا[4]

الاختصار: "قال البحتري:

وكأنَّ في جسمي الذي في ناظرَيْك مِنَ السّقمْ

---

[1]- المصدر نفسه: ص: 189.

[2]- الوساطة: ص: 191.

[3]- المصدر نفسه: ص: 206؛ وهناك أمثلة أخرى انظر: ص:409/321/233.

[4]- المصدر نفسه: ص: 223، وإشارات مصطلح النقل عديدة؛ انظر ص: 270/256 /288/273 /329/324 / 399/379/367/361/360/337.

وقال المتنبي:

أَعَـــارَني سُـــقمَ جفنَيـــهِ وحمّلَنـــي مِـنَ الهـوى ثقـلَ مـا تَحْـوي مـآزِرُه

فاختصر وأحسن وأورد البيت في نصف مصراع"[1]

الزيادة: " قال البحتري:

ولـــئن طلبـــتُ شـــبيهه إنّـــي إذًا لمكلَّـــف طلـــب المحـــال ركـــابي

نقله أبو الطيب فقال:

ومـــا عَـــزَّهُ فيهـــا مُـــرَادٌ أرادَهُ وإن عَـــزَ إلّا أن يكـــونَ لـــهُ مثـــلُ

فزاد؛ لأنه بيّن وجهين من المدح: أحدهما وصفه بالاقتدار والتمكن من المراد، والثاني انفراده بالفل عن الأمثال".[2]

التفصيل: "قال البحتري:

ملـــوكٌ يَعُـــدّون الرمـــاحَ مخاصِـــرًا إذا زَعْزعُوهـــا والـــدُّروعَ غَلَائـــلا

وقال المتنبي:

مُتَعَـــوّدًا لُـــبْسُ الـــدُّروعِ يَخَالُهـــا فـــي الْبَـــرْدِ خَـــزًّا والهَـــواجِر لَاذَا

ففصل ما أجمل البحتري في قوله: "والدروع غلائلا"، وقصر في اللفظ".[3]

التفسير والشرح: "قال أبو نواس: *وكلُّ خيرٍ عندَهُمْ من عِنْدِهِ*

وفسر أبو الطيب وشرح وملُح:

أَسِـــيرُ إلـــى إقْطَاعِـــهِ فـــي ثيابـــهِ علـــى طِرْفِـــهِ مِـــنْ دارِهِ بحُسَـــامِهِ

ومـــا مَطَرَتْنيـــه مـــن الْبـــيضِ والقنـــا وَرُومِ العِبِـــدّى هـــاطلاتُ غَمامِـــهِ".[4]

التعليل: "قال المتنبي:

وَلَقِيـــتُ كـــلَّ الفاضـــلينَ كأنّمـــا ردّ الإلـــهُ نفوسَـــهم والأعْصُـــرا

---

[1]- الوساطة: ص: 229؛ وانظر: ص: 233.

[2]- المصدر نفسه: ص: 324؛ وإشارات مصطلح الزيادة عدّة؛ انظر: ص: 229/316/322/351/358/ 362.

[3]- المصدر نفسه: ص:313–314.

[4]- الوساطة: ص: 334.

ومن مليح ما يشاكل هذا قوله:

نُسِــقُوا لنــا نَسْــقَ الحســاب مُقَــدَّما وأتـــى فـــذلكَ إذ أتيـــتَ مُـــؤَخَّرا

فعلل وشبه، وأوضح المعنى بذكر الحساب واجتماع أعداده في الفذلكة".[1]

ينبثق عن تصورات الجرجاني ثلاث ملحوظات:

الأولى: تشكل هذه الآليات وسيلة من وسائل توليد المعاني.

الثانية: حلت مشكلة محنة الشعراء المحدثين في قلة المعاني.

الثالثة: أخرج الجرجاني هذه المعاني التي انبثقت عن هذه الآليات من إطار السرقات الشعرية التي كان يتحدث عنها، إذ وصف بعضها، أنّها معانٍ متفردة تشبه الاختراع.

ولم تختلف رؤية أبي هلال العسكري (ت395هـ) عن رؤية علي بن عبد العزيز الجرجاني، فهو لم يصرح بالمصطلح، وإنما ذكر آليات التوليد وشواهدها الشعرية تحت عنوان حسن الأخذ، وعدّ من أجادها من الشعراء أحقّ بها ممن سبقهم، قال: "ليس لأحد من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم؛ ولكن عليهم . إذا أخذوها . أن يكسوها ألفاظًا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممن سبق إليها".[2]

ويمضي بعد ذلك في سرد هذه الآليات وشواهدها؛ وهي النقل من غرض إلى آخر[3]، أو من معنى إلى معنى[4]، أو من صفة إلى أخرى[5]. والزيادة الحسنة[6]، والإيجاز[7]، والشرح،[8] وإتمام المعنى[9]، والتقسيم[10]، وحسن الرصف والسبك[11].

---

[1]- المصدر نفسه: ص: 255.

[2]- كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ/1986م، ص: 196.

[3]- المصدر نفسه: ص: 198-199.

[4]- المصدر نفسه: ص: 199.

[5]- المصدر نفسه: ص:200-201.

[6]- المصدر نفسه: ص: 201-202-203/ 206-207- 208/ 212/ 222/ 224-225-226-227-228.

[7]- المصدر نفسه: ص: 205.

[8]- المصدر نفسه: ص: 207/209/214-215.

[9]- المصدر نفسه: ص: 208.

[10]- المصدر نفسه: ص: 226.

[11]- المصدر نفسه: ص: 203-204/208-209/212/227.

توافقت آليات توليد المعاني عند كلّ من العسكري والجرجاني، غير أنّ العسكري قد أضاف "حسن الرصف والسبك"، وهي سمة أسلوبية تتعلق ببناء النص، ممَّا ينعكس إيجابًا على المعاني.

أمّا ابن رشيق القيرواني (456هـ) فلم تأت جلّ هذه الآليات عنده تحت مسمى السرقة أو حسن الأخذ، كما رأى بعض النقاد السابقون؛ ابن طباطبا، والجرجاني، والعسكري، وإنما وردت تحت مسمى التوليد، فعرّفه، وذكر آلياته، واستشهد عليها ببعض الشواهد الشعرية.

قال ابن رشيق: التوليد: "أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة، فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع؛ لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضًا "سرقة" إذا كان ليس آخذًا على وجهه، ومثال ذلك قول امرئ القيس:

سَـموتُ إلَيهـا بعـدَ مـا نـامَ أهلُهـا سُـمُوَّ حَبَـابِ المـاء حَـالًا علـى حَـالِ

فقال عمر بن أبي ربيعة، وقيل وضّاح اليمن:

فاسْـقُطْ علينـا كَسُـقوطِ النـوى ليلـةَ لا نَـاهٍ ولا زاجِـرُ

فولّد معنى مليحًا اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس، دون أن يشركه في شيء من لفظه، أو ينحو نحوه إلا في المحصول، وهو لطف الوصول إلى حاجته في خفية".[1]

إنّ خفاء الاقتداء بالمعنى آلية من آليات توليد المعنى، والآليات التي ذكرها ابن رشيق:

الزيادة: "وأمَّا الذي فيه زيادة فكقول جرير يصف الخيل:

يَخْـرجْنَ مِـنْ مُسْـتطِير النَّقْـعِ داميـةً كـأنّ آذانهـا أطـرافُ أقـلام

فقال عدي بن الرِّقاع يصف قرن غزال:

تُزْجِـي أغَـنَّ كـأنَّ إبـرَةَ روقِـهِ قَلَـمٌ أصـابَ مِـنَ الـدّواةِ مِـدَادَها

فولّد بعد ذكر القلم إصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى، إذ كان القرن أسود. وقال العماني الراجز بين يدي الرشيد يصف الفرس:

تَخَـالُ أُذنَيـهِ إذا تَشَـوَّفا قادمـةً أو قَلَمًـا محرفـا

فولّد ذكر التحريف في القلم، وهو زيادة صفة.[2]

[1]– العمدة: جـ1، ص: 263.

[2]– العمدة: جـ1، ص: 263–264.

الشرح والترتيب: "ومن التوليد قول أمية بن أبي الصّلت يمدح عبد الله بن جدعان":

لكـــلّ قبيلـــة ثـــبجٌ وصـــلب وأنـــت الـــرأسُ أولُ كـــل هـــاد

فقال نُصيب لمولاه عمر بن عبد العزيز:

فأنـــتَ رأس قـــريشٍ وابـــنُ سَـــيِّدِها والـرأسُ فيـهِ يكـون السـمعُ والبصـر

فولّد هذا الشرح وإن كان مجملًا في قول أمية بن أبي الصلت... ثم أتى علي بن جبلة، فقال يمدح حميد بن الحميد:

فالنـــاسُ جســـمٌ، وإمـــامُ الهُـــدَى رأسٌ، وأنـــت العـــينُ فـــي الـــرأس

فأوقع ذكر العين على مشبه معين، ولم يفعل نصيب كذلك، لكن أتى بالسمع والبصر على جهة التعظيم؛ لأن من ولد عمر ولي عهد، ففي قول علي بن جبلة زيادة... وجاء ابن الرومي، فقال: "عَيْنُ الأميرِ هي الوزيـــر، وأنتَ ناظُرها البصير"

فرتب أيضًا ترتيبًا فيه زيادة، فهذا مجرى القول في التوليد".[1]

وعدّ ابن رشيق آليات توليد المعنى معيارًا نقديًا في تفضيل معنى الشاعر الآخذ على المأخوذ منه، فمتى أخذ الشاعر معنى من المعاني السابقة واعتمد آلية من هذه الآليات كان أولى بالمعنى، فقال: "غير أنّ المتبع إذا تناول معنى فأجاده . بأن يختصره إن كان طويلًا أو يبسطه إن كان كزًا، أو يبينه إن كان غامضًا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافًا، أو رشيق الوزن إن كان جافيًا . فهو أولى بالمعنى، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه".[2]

وقد كرر ابن رشيق القيرواني هذه الرؤية النقدية، وكذلك آليات التوليد في كتابة قراضة الذهب، ورأى أن الشاعر إذا زاد زيادة بارعة مستحسنة يستوجبه بها ويستحقه على مبتدعه ومخترعه".[3]

---

[1]- المصدر نفسه: جـ1، ص: 264.

[2]- العمدة: جـ1، ص: 290.

[3]- قراضة الذهب: ابن رشيق القيرواني، تح: الشاذلي بو يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م، ص: 19.

والآليات التي ذكرها في قراضة الذهب، هي الزيادة[1]، ونقل المعنى[2]، ونقل الصفة[3]، وإبراز المعنى[4]، والشرح[5]، والتفسير[6]، والجمع[7]، والاختصار[8]، والعكس[9].

ومن المصطلحات التي عرفها مصطلح التلفيق، " وهو أن يميّز الشاعر المعاني المتقاربة، ويستخرج منها معنىً مولدًا يكون له كالاختراع، وينظر به جميعها فيكون وحده مقام جماعة من الشعراء، وهو ممَّا يدلُّ على حذق الشاعر، وفطنته؛ ولم أرَ ذلك أكثر منه في شعر أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعرّي"[10].

ومن الشواهد التي ذكرها على توليد المعاني عند كل من المتنبي وأبي العلاء المعّري، قال: "وربما تناول الشاعران معنى شاعر متقدم، ليولدا منه معنى مُحدَثًا، فاتفقا"، كقول حمزة بن بِيض يمدح الفَيض:

ولائمةٍ لامتك يا فيض في النّدى ومن ذا الّذي يثني الغمام عن القطر

تناوله أبو الطيب المتنبي والسّرِي الموصلي في وقت واحد وممدوحهما واحد فقال أبو الطيب في سيف الدولة:

وما ثَنَاكَ كلامُ النّاسِ عَنْ كَرَمٍ وَمَنْ يَرُدّ طريقَ العارِضِ الهَطِلِ

وقل السّريّ الموصلي فيه أيضًا:

وهْوَ الغَمَامُ فَهَلْ تُثْنَى صواعِقُهُ وهلْ تُسدُّ على شُؤْبُوبِهِ السُّبُلُ[11]

---

[1]- المصدر نفسه: ص: 60 / 69 / 71 / 96

[2]- المصدر نفسه: ص: 69 /71

[3]- المصدر نفسه: ص: 69/ 79

[4]- المصدر نفسه: ص، 66/74

[5]- المصدر نفسه: ص: 69

[6]- المصدر نفسه: ص: 46

[7]- المصدر نفسه: ص: 114

[8]- المصدر نفسه: ص: 63

[9]- المصدر نفسه: ص: 71 –72

[10]- المصدر نفسه: ص: 106

[11]- قراضة الذهب: ص: 87–88.

ورأى أبو العلاء معاني عدّة فولد منها معاني جديدة، منها قول: المُعَذَّل وهو مكحول بن عبيد الله بن عمرو السَّعدي:

كـــأنَّ بِصَـــفْقَي جَـــوزِهِ وبنَحْـــرِهِ جفـــاء رُغـــا خُـــورٍ إذا هُـــوَ أزبَـــدَا

فولّد منه قوله[1] في صفة الفرس:

كـــأنّ غَبُوقَـــهُ مـــن فَـــرطِ رِيٍّ أبـــاهُ جِســـمُهُ فبـــدا مَسِـــيحَا

كـأنّ الـرّكضَ أبـدَى المَحْـضَ منـهُ فمـــجَّ لبَانُـــهُ لَبَنًـــا صَـــرِيحَا

فجاء في نهاية الجودة والتمكن"[2].

ومن يدقق في قراضة الذهب يرى أنَّ كثيرًا منها يدور حول توليد المعاني، سواء أصرح ابن رشيق بالمصطلح أم لم يصرح به.

وهو يرى أنه كلما تقدم العصر كثرت المعاني المولدة، فقال: "وإذا تأملت هذا تبين لك ما في أشعار الصدر الأول الإسلاميين من الزيادات على معاني القدماء والمخضرمين، ثم ما في أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة التي لا يقع مثلها للقدماء، إلا في الندرة القليلة والفلتة المفردة، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معاني ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي، والمعاني أبدًا تتردد وتتولد، والكلام يفتح بعضه بعضًا، وكان ابن الرومي ضنينًا بالمعاني، حريصًا عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، فلايزال يقلبه ظهرًا لبطن، ويصرفه في كل وجه، وإلى كل ناحية، حتى يميته، ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد"[3].

وقد روى في مكانٍ آخر أنّ "أكثر المولدين اختراعًا وتوليدًا – فيما يقول الحذاق – أبو تمام وابن الرّومي"[4].

يعدُّ ابن رشيق القيرواني من أكثر النقاد اهتمامًا بقضية توليد المعاني، فكان له أثر بالغ في تأصيل المصطلح على المستوى النقدي، إذ عرّفه، وفرق بينه وبين السرقات الشعرية، كما ذكر آلياته وشواهدها الشعرية، وعدّ المعنى المولد الذي يرتكز على آليات التوليد أفضل من المعنى المأخوذ منه، كما حدد أسماء الشعراء المميزين بتوليد المعاني.

---

[1]- سقط الزند: أبو العلاء المعرّي، دار بيروت ودار صادر للنشر، بيروت، 1376هـ /1957، ص: 76

[2]- قراضة الذهب: ص: 113.

[3]- العمدة: جـ2، ص: 238.

[4]- المصدر نفسه: جـ 1 ص: 265.

نتائج البحث:

• كشف البحث عن أهمية مصطلح توليد المعاني في التفكير النقدي عند العرب القدماء، إذ اتخذه بعضهم معيارًا نقديًا في الحكم على الشعراء. وجعله بعضهم حلًا لمحنة الشعراء المحدثين في قلة المعاني.

• أتى مصطلح توليد المعاني تحت مسميات عدّة، فبعضهم صنف آلياته تحت عنوان السرقة، وأدرجها بعضهم تحت عنوان الأخذ، أمّا بقية النقاد فذكروا المصطلح نفسه بدلالته على آلياته.

• إن النقاد الذين ذكروا آليات التوليد تحت عنواني السرقة والأخذ أخرجوا المعاني المولّدة من هذه الآليات من إطار العنوانين، وعدّوها معاني متفردة تشبه الاختراع.

• حدد النقاد القدماء آليات التوليد: نقل المعنى من غرض إلى غرض آخر، ونظم المنثور، وجمع المعنى، والزيادة اللطيفة، واختصار المعنى، وبسط المعنى، والقلب، والتأكيد، والتقريظ، والتصريح، والاحتجاج والتعليل، وخفاء المعنى، والشرح والترتيب، والتلفيق، واستبدال الكلام السفساف بكلام جيد، واستبدال الوزن الجافي بوزن رشيق، وصياغة المعنى صياغة جديدة.

• تميّز بعض الشعراء بتوليد المعاني؛ كالمتنبي، وأبي العلاء المعري، وابن الرّومي وأبي تمام.

المصادر والمراجع:

1. أخبار أبي تمام: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، تح: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
2. أدونيس منتحلًا: جهاد كاظم، مكتبة مدبولي، مصر، 1993، ص: 34.
3. الرسالة الموضحة: الحاتمي أبو علي محمد بن الحسن، تح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1385هـ/1965م.
4. سقط الزند: أبو العلاء المعرّي، دار بيروت ودار صادر للنشر، بيروت، 1376هـ .
5. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992م.
6. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1972م.
7. عيار الشعر: ابن طباطبا، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية.
8. قراضة الذهب: القيرواني، ابن رشيق القيرواني، تح: الشاذلي بو يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م.
9. كتاب التشبيهات: ابن أبي عون، عني بتصحيحه: محمد عبد المعين خان، مطبعة جامعة كمبرج، 1369هـ/1950م.
10. كتاب الصناعتين: أبوهلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ/1986م.
11. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1358هـ/1939م.
12. الموازنة بين أبي تمام والبحتري: الحسن بن بشر الآمدي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية بيروت، 1363هـ/1944م.
13. نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د. ت).
14. الوساطة بين المتنبي وخصومه: علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1386هـ/1966م.